المسلمون بين الشرق والغرب

عند ظهور الاسلام

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ١ —

ظهر الإسلام والعالم منقسم إلى كتلتين كما ينقسم الآن ، كتلة شرقية تقودها دولة الفرس من الأكاسرة ، وكتلة غربية تقودها دولة الروم من القياصرة ، والتاريخ يعيد نفسه ، وقد وقع العرب بين هاتين الكتلتين فيما يقع فيه الآن أهل الشرق الأدنى بين الكتلة الشرقية بقيادة روسيا الشيوعية ، والكتلة الغربية بقيادة أمريكا وإنجلترا ، وكان كل من الكتلتين يقود فريقا من العرب إلى ما بينهما من حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، بل كانوا هم الذين يغرمون دائما من أنفسهم وبلادهم ، وكان الغنم لصاحب النصر من الفرس أو الروم

وكانت السياسة الخادعة المفرقة قد قسمت العرب إلى قسمين وأقامت فيهم دولتين : تقوم إحداهما بجانب الفرس ، وهى دولة المناذرة بالعراق ، وتقوم الثانية بجانب الروم ، وهى دولة الغساسنة بالشام ، وكان الفرس هم الذين يوجهون سياسة الدولة الأولى ، كما كان الروم يوجهون سياسة الدولة الثانية ، فإذا قامت حرب بين الفرس والروم كان المناذرة بجانب الفرس ، وكان الغساسنة بجانب الروم ، وقام فريق من القبائل العربية بجانب المناذرة ، وقام فريق آخر منها بجانب الغساسنة ، وقد انقسم العرب بهذا على أنفسهم ، وقامت به حروب كثيرة بين المناذرة والغساسنة ، وبين القبائل العربية بعضها وبعض ، حتى ضعف شأن العرب بهذه الحروب ، وكانت بلادهم تقع فريسة فى أيدى الطامعين فيها بلدا بعد آخر

وكانت ببلاد العرب دولة كبيرة يلتف العرب جميعا حولها ، وهى الدولة الحميرية باليمن ، وكان كل من دولتى الفرس والروم لا يرتاح إلى وجودها ببلاد العرب ، لأنها كانت تأبى أن تقف منهما موقف دولتى المناذرة والغساسنة ، فيعمل كل من الروم والفرس على إضعافها والاستيلاء على بلادها ، وكان أن سلط الروم دولة الحبشة على هذه الدولة ، فاستولت عليها قبيل ظهور الإسلام . وحكمتها نحوا من سبعين سنة ، حاولت خلالها أن تستولى على بلاد الحجاز وغيرها من بلاد العرب ، ولما رأت أن الكعبة هى الرمز الدينى الذى يجمعهم ، قصدت مكة لتخريبها فى وقعة الفيل المعروفة ، وقد انتهت هذه الوقعة بهزيمتها على ما هو معروف فى التاريخ ، ثم كان أن قام سيف بن ذى يزن من بقايا الحميريين يحاول استعادة دولتهم ، ولم ير وسيلة إلى هذا إلا أن يستعين بالفرس أعداء الحبشة والروم ، فأمدوه بجيش أمكنه أن يخرج الحبشة من اليمن ، وأن يقيم سيف بن ذى يزن ملكا على دولة آبائه ، وكان لذلك رنة فرح فى الحجاز وغيره من بلاد العرب ، فأتت الوفود من هنا وهناك لتهنئته باستعادة ملك الحميريين وكان منها وفد الحجاز وعلى رأسه عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بين رجاله أمية بن أبى الصلت الثقفى الشاعر ، فهنأه بقوله :

لايطلب الثأر إلا كابن ذى يزن
فى البحر خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته
فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة
من السنين يهيج النفس والمالا

وإلى فترة طويلة من الزمن وإلى انتحاء القادة والزعماء ناحية جديدة مستمدة من علوم الأخلاق ؛ بل من وحى السماء بل من رب السموات والأرض الذى يعلم ما يصلح المجتمع وما يفسده « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . هذه الخطة التى تربى القلوب تربية تؤمن بربها وتخشاه كفيلة بأن تكون من ناشئتنا الأخلاق الفاضلة التى تسمو بنا عن كل الصغائر ، وتدفع بنا سريعا نحو السمو ونحو المجد ونحو العزة ؛ وهى لا شك ترضى ما ضينا وحاضرنا ومستقبلنا — ألا هل بلغت اللهم فاشهد

عبد الحميد فهمى مطر

حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم
تخالهم فوق متن الأرض أجبالا

إلى أن قال :

فالتقط من المسك إذ شالت نعامتهم
وأسبل اليوم فى برديك إسبالا
واشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا
فى رأس غمدان دارا منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ولكن كسرى الفرس لم يقدم هذه المساعدة لسيف بن ذى يزن خالصة لوجه الله تعالى ، بل كانت فى نظير خراج من اليمن يؤدى إليه كل سنة ، فكان سيف بن ذى يزن يؤديه إليه ، وكان جيش كسرى الذى أعاد إليه ملك اليمن يشاركه فى حكمه ، فلما توفى ضم الفرس إليهم ملك اليمن ، وصار الذى يتولى أمره واحد منهم ، ولم يستفد أهله من حركة سيف بن ذى يزن إلا أن استبدلوا ملك الفرس بملك الحبشة

فلما أتى الإسلام لم يرض أن يقف كما وقف العرب ذلك الموقف المعيب من تينك الكتلتين ، لأنه لا يليق أولا بالعرب كأمة يجب أن ترعى كرامتها ومصلحتها قبل غيرها ، ولا يصح أن تجعل فريقا منها ذيلا لدولة الروم ، وفريقا آخر ذيلا لدولة الفرس فينقسم بعضهم على بعض فى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . ثم لا يليق ثانيا بدين أتى للاسلام والتعارف وهداية الناس كافة أن يشترك فى هذه الحروب المفرقة الآثمة ، لأنها لم تكن قائمة لغرض شريف ، وإنما كان يقصد منها توسيع السلطان ، وبسط سيادة الأقوياء على الضعفاء ، ليعظم الخراج الذى يجبونه منهم ، ويتوسعوا فى الترف الذى ينفق فيه ذلك الخراج ، فيزداد الأقوياء غنى وطغيانا ، ويزداد الفقراء فقرا ومذلة

فآثر الإسلام أن يقف موقف الحياد من تينك الكتلتين ، لا يهمه إلا غايته الشريفة التى يسعى إليها ، ولاينظر إليهما إلا فى حدود هذه الغاية ، وفى حدودها كان حياده فيه شىء من العطف نحو دولة الروم ، لأنها لم تكن حينئذ تملك إلا قليلا من بلاد العرب ، وكانت بلاد الشام التى تقوم فيها دولة الغساسنة لا تعد من بلاد العرب فى ذلك الوقت إلا على نحو التجوز ، أما دولة الفرس فإنها كانت متسلطة على كثير من بلاد العرب ، ولم يكن خالصا من سلطانها إلا بلاد الحجاز ونجد ، وكان الإسلام يرى أنه سيقوم أولا على أكتاف العرب ، لنشأته بينهم ، فلم يرتح لاستيلاء الفرس على هذه البلاد التى يعدها وطنه الأول ، وهذا إلى أن الروم كانوا أهل كتاب ، فكانوا أقرب فى العقيدة إلى الإسلام من الفرس

وكان من مظاهر عطف الإسلام على دولة الروم أن حزن المسلمون وهم بمكة قبل الهجرة على غلبة الفرس لهم ، حتى نزل فى هذا قرآن يعدهم بنصر الروم على الفرس ، وذلك قوله تعالى فى أول سورة الروم

« الم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »

وقد مكن ذلك موقف الإسلام من تينك الكتلتين إلى أن صار له شىء من القوة بالمدينة ، ورأى أن يدعو رؤساء تينك الكتلتين إلى أمر تجتمع عليه كلتهم ، وتبطل به هذه الحروب بينهم ، فيسود السلام بين الشعوب البشرية ، وتقوم بينهم علائق الصفاء والمودة ، ولا يكون هناك أقوياء يتحكمون فى الضعفاء ، ولا أغنياء مترفون ، وفقراء مدقعون ، بل يعيش الضعفاء بجانب الأقوياء ولهم مثل حقوقهم ، ويعيش الفقراء بجانب الأغنياء قريبا من عيشهم ، حتى لا يكون هناك فارق كبير بين هذه الطبقات ، ولا يعيش الأقوياء والأغنياء فى نعيم وترف ، والضعفاء والفقراء فى حرمان وبؤس

وقد وقف الإسلام بهذا موقفا كريما بين تينك الكتلتين ، ولكنه لم ينل منهما ما يليق به من التقدير ، فأغضبت كسرى الدعوة التى وجهت إليه ، وبعث إلى عامله باليمن يأمره بقتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان شأن الدعوة التى أرسلت إلى رؤساء الكتلة الرومية ، ثم كان أن جر كل من الكتلتين الإسلام إلى حروب لم يكن يريدها مع أن الظفر كان فيها له ؛ وكان من خير الإنسانية أن يجيباه إلى إبطال هذه الحروب ، ولو أنهما أجاباه إلى هذا لكان للعالم اليوم شأن عظيم غير هذا الشأن

للكلام صلة عبد المتعال الصعيدى